

التربية والتعليم في الجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي

لقد كانت الثقافة في الجزائر قبل العهد العثماني امتدادا منطقيا للتيار الصوفي الذي ساد المجتمعات العربية الإسلامية، وجسد الإنتاج الثقافي هذا التوجه، وقد كانت الطريقة وهو تنظيم ديني يطبع مجمل المؤسسات الثقافية والتربوية، وكانت منتظمة بهذا الشكل: مدارس، مساجد في المدينة وزاوية في الريف، وساعد هذا في معرفة الجزائريين للقراءة والكتابة، كما صرح بذلك ميشال هابارمان "كل قرية كانت قبل الاحتلال الفرنسي مزودة بمدريستها. (دروش فاطمة فضيلة: 2013، ص50).

كما أن جميع الجزائريين سنة 1830 كانوا يحسنون القراءة والكتابة، وكانت مدينة الجزائر تشتمل على مائة مدرسة، وقسنطينة على 86 مدرسة، وتلمسان على 50 مدرسة، وفي القطر بأكمله كانت هناك عشر جامعات تقدم للطلبة تعليما عاليا موزعة على مختلف أنحاء البلاد يؤمها الطلبة بعد حفظ القرآن وإنهاء المرحلتين الابتدائية والثانوية. (دروش فاطمة فضيلة: 2013، ص51)

وللتدليل فهناك العديد من الشهادات للفرنسيين وغيرهم حول الحياة الثقافية في الجزائر عند دخول

المستدمر.

ذكر بيليس دي رانيو Pellissier de Reynold "...لقد كان التعليم الأولي منتشرًا بينهم، بقدر انتشاره عندنا، انتشرت المدارس في معظم القرى والمداشر. ولقد كان لمصادرة ممتلكات المساجد استنزاف لموارد التعليم الذي كان يتخرج منه، على مجموع ولايات الوطن، ما يقارب ثلاثة آلاف من الفقهاء وعلماء الشريعة". (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص29).

"يفترض أن يكون التعليم آنذاك يعني الذكور دون الإناث، فالأمر كان كذلك في باقي أقطار العالم الإسلامي وكما يفترض أن ذلك راجع لطبيعة النشاط الزراعي والرعي وتمركز غالبية السكان في الأرياف إذ كان معظم التلاميذ يتوقفون عن التعليم في سن مبكرة". (دروش فاطمة فضيلة: 2013، ص51).

كما ذكر "دي توكوفيل" De Tocoqueville في تقرير له سنة 1847: "...لقد استولينا في كل مكان على أموال المؤسسات الخيرية التي كان غرضها سد حاجيات الإحسان والتعليم العام، وذلك بأن حولناها جزئياً عن استعمالها السابقة، وأنقصنا المؤسسات الخيرية، وتركنا المدارس تتداعى، وبعثرنا الحلقات الدراسية، لقد انطفأت الأنوار من حولنا، وتوقف انتقاء رجال الدين ورجال القانون، هذا يعني أننا جعلنا المجتمع الإسلامي أشد بؤساً وأكثر جهلاً وأشد همجية بكثير مما كان عليه قبل أن يعرفنا". (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص29).

والمرسوم المؤرخ في 05 جويلية 1830 على الساعة العاشرة مع تقريب دخول الجيوش الفرنسية الجزائر مؤكداً لهمجية المستدمر وحقده على الثقافة العربية الإسلامية بمصادرته كل ممتلكات المساجد والمؤسسات التربوية والدينية، وأمر بأخذ كل ممتلكات العلماء والفقهاء والقضاة، على أن يكون ذلك بعلم المارشال "يورمو"، هذا يدل على أن خطة الاستدمار التجهيلية كانت تسعى إلى بسط نفوذها على كل ما له صلة بالثقافة والتعليم والدين، اعتقداً منهم أن إذلال الشعب والسيطرة عليه لا يتم إلا من هذا الباب. (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص29).

بدأ الكولون بتأسيس مؤسساته، بفتح مدارس البلديات أبوابها للتلاميذ العرب ولكنهم لم يدخلوها، وأعطيت فرصة للتلاميذ الذين تجاوز سنهم الرسمي للالتحاق بالتعليم، وأنشئ أول معهد فرنسي عربي في الجزائر عام 1857 ثم أحدث معهدان آخران في قسنطينة ووهران، وافتتحت بمنطقة القبائل عام 1867 مدرسة أهلية للفنون والحرب وأعيد إنشاء وتحديث ثلاث مدارس لتأهيل الموظفين الكبار: كتاب عدل، ووكلاء، وقضاة ومفتون ومعلمو مدارس. (دروش فاطمة فضيلة: 2013، ص51).

كما جاءت هذه السياسة أولاً بغرض تثبيت الأيديولوجية الكولونالية وثانياً للرد على المقاومات التي كانت تقام في مختلف المناطق ولاستكمال بناء إدارة ونظام فرنسي، كما أعيد فتح مؤسسات التعليم

الإسلامي التي دمرتها الحرب والمصادرات وهجرة المعلمين، إذ أعيد فتح 200 مدرسة قرآنية عام 1864 في المناطق العسكرية وأحدثت في المدن وفي بعض القبائل مدارس عربية فرنسية، تدرس فيها العربية صباحا والفرنسية مساء، ورفضت البلديات التي أنشأت هذه المدارس على نفقتها تقديم الأموال إليها وأنشئت 36 مدرسة عام 1870 في مدينة الجزائر، كما أنشئت دار المعلمين لتخريج المعلمين وسجل فيها آنذاك 20 طالبا فرنسيا و 10 مسلمين. (دروش فاطمة فضيلة: 2013، ص52).

هذا وبعد الاستعمار الفرنسي للجزائر أبشع أنواع الاستعمار، لأنه لم يكتف باستغلال ونهب خيرات البلاد، بل عمد إلى رسم أساليب واعتماد طرق جهنمية للقضاء على المعالم الثقافية، ومنها سياسة الدمج المتعمدة والتي كانت نية مبيتة تهدف إلى إحلال الثقافة الفرنسية بدلا من الثقافة العربية الإسلامية، وما المرسوم الصادر في جويلية 1830 عند ساعة الاحتلال، القاضي بمصادرة كل ممتلكات المؤسسات الدينية والثقافية والتربوية إلا دليل قاطع على سياسة الدمج. (صحبي حسان: 1426هـ-2005م، ص31).

وقد صرح المسؤول الفرنسي آنذاك أن لغتهم هي اللغة الأعلى وأن برنامج تعليمها هي التي ستعلم في الجزائر ما أدى إلى تحفظ الجزائريين من إرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية. (أبو القاسم سعد الله: 2009، ص385).

"وقد أصر كل القادة الذين قادوا حملات الغزو العسكري والثقافي على الجزائر على تحطيم اللغة العربية والإسلام وبناء سد منيع يقف أمام كل المحاولات التي تحول دون الاغتراب". (صحبي حسان: 1426هـ-2005م، ص31).

كما أورد "كلود بونطان" Bontemps Cloude نقلا عن "إيفون توران" من كتابها: [مواجهات ثقافية في الجزائر المستعمرة]، أنها تتحدث عن 80 مدرسة قبل الاحتلال، بالنسبة إلى تلمسان مثلا كانت توجد بها 3 إكماليات و 50 مدرسة من أصل 12 إلى 14 ألف ساكن، كان يوجد في داخل الوطن من أجل 12500 ساكن تقريبا، 30 زاوية متفاوتة الشهرة، وفي كل دوار مدرسة بها 2000 تلميذ كانوا يتلقون تعليما ثانويا 600 منهم يواصلون تعليما عاليا، وكل مؤسسة لها مكتبة، كان التعليم على نفقة الأسر، وما تبقى تكمله المؤسسات، لم تكن يد للدولة الإسلامية تظهر في كل مكان. (صحبي حسان: 1426هـ-2005م، ص31).

وعن (أصل وحوار حول المدارس العربية الفرنسية) قالت "إيفون توران": "...كان الاعتقاد السائد في بداية الاحتلال هو ضرورة تعليم العربية والفرنسية، قصد منافسة التعليم المحلي بالترغيب والمنح المقدمة للأسر... الخ، ثم بالتنافس كان لا بد من إخلاء المدارس.

تم تعزيز الغزو التربوي بعدة طرق ففي 20 ديسمبر 1837 أجرى وزير التربية الفرنسية "برنادر" اتصالات مع الأمير عبد القادر بغرض السماح ببعث مجموعة من الطلبة الجزائريين إلى فرنسا لمواصلة التعليم وتعزز هذا المطلب في فيفري 1839 بصيغة الأمر الواجب التنفيذ، حيث تظهر النية المبيتة لذلك، فالهدف كان تكوين طبقة من أبناء الجزائريين تسهل نقل رسالة المسدمر بمضمون استدماري راسمة لشعبها تصورات منها أن فرنسا قوية متحضرة، وكانت الرغبة في نشر هذه الرسالة إلى وعي وتصور الجزائريين من خلال أبنائها المتعلمين في فرنسا، وقد كان الأمير عبد القادر فطنا لمستقبل شيوع الثقافة والتربية الاستدمارية وخطرها على هوية الوطن ومستقبل الشعب عندما تخوف من دور النخبة التربوية والعلمية من الجزائريين الذين يتم إعدادهم وتهيئتهم وفقا لأهداف السياسة الاستدمارية ومراميها الآنية والبعيدة. (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص33-34).

فبعد معاهدتي "ديمشال" و "التافنة" اللتين كانتا فرصتين ثمينتين بالنسبة للأمير استغلها في تنظيم أموره التربوية، وكانت المناطق المحررة يشرف عليها طلبة العلم الهاريين من ضغط الاستدمار، وعلى مستوى التراب الوطني كان الأمير مستمرا على فتح المدارس والزوايا التي استقبل فيها الشباب من حفظة القرآن الذين كان المستدمر يريد أن ينقلهم إلى باريس ليتعلمو فيها، ليكونوا بعد ذلك همزة وصل بين الحكومة الفرنسية والأهالي. (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص34).

وقد أخذ ردود أفعال "الأمير عبد القادر" على المستوى التربوي بعدا فلسفيا وسياسيا لم تتبين ملامحه إلا بعد وقت طويل، حالت دون تحقيق غايات المستدمر لمحو الهوية الجزائرية وتكريس ثقافتها بلسان أبناء الجزائر لإخوانهم الجزائريين ليكونوا أكثر تأثرا وتقبلا واستدماجا لما يتعلمونه من أبناء وطنهم. ومن الأعمال التي تدل على اهتمام الأمير عبد القادر بالجانب التربوي التعليمي ما يلي: (صحيبي

حسان: 1426هـ-2005م، ص36)

- أ- فتح مدارس في عدة مناطق: تلمسان، معسكر، تكدامت.
- ب- تدعيم المدارس بالمدرسين والمعلمين والمشايخ.
- ج- إعطاء الزوايا بعدها الثقافي والتربوي ومحاربة الخرافة فيها.
- د- تشجيع طلبة العلم وتدعيمهم ماديا.
- هـ- تخصيص رواتب للمعلمين حسب كفاءاتهم العلمية والمهنية.
- و- التدخل المباشر في تعيين أساتذة ومعلمين لتدريس مبادئ القراءة والكتابة وعلوم الحساب والعلوم الشرعية والتاريخ.

ز - الاهتمام بالكتب والمكتبات.

وبعد ثورة 1848 نصبت لجان بهدف دراسة التعليم الخاص بالمسلمين، كان المسؤولون الفرنسيون مدفوعين بنفس الانشغال، ألا وهو: كيف يمكن إنشاء تعليم يتجاوب مع متطلبات استتباب الأمن لهم، وهذا ما تبين من التقرير الملحق بالمرسوم الرئاسي الصادر في 14 جويلية 1850 حيث كتب "بوتيمب" "...إن الإدارة الأكثر نجاعة لتحقيق السلم الكامل في الجزائر تمثل في نشر الثقافة الفرنسية وتعميمها بين الأهالي". (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص40)

وفيما يتعلق بالمجال التربوي في هذه الجمهورية الفرنسية تميزت بصدور جملة من القرارات والمراسيم التي سعت إلى تنظيم المؤسسات الدينية، والتعليمية بسياسة تجعل منها (المساجد والزوايا)، وسائط يمكن أن تسيّر لتخدم مصالح المستدمر، كتغريب اللغة العربية وضربها في عقر دارها وتهميش الثقافة العربية الإسلامية، وضرب المنظومة التربوية، ومن ضمن المراسيم والقرارات ما يلي: (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص41)

- أول قرار يوم 6 أوت 1850، يقضي بتغريب اللغة العربية وإحلال الداريجة محلها، كما صدر في 30 سبتمبر من نفس السنة قرار آخر أنشئت بموجبه مدارس تستقبل أبناء الأهالي في كل من المدية والجزائر وتلمسان، وقد كان التعليم فيها مقتصرًا على أبناء طبقة خاصة من السكان ممن تتوفر فيهم مواصفات الولاء له، كان المستدمر في حاجة إلى مثقفين من أبناء الجزائر ليسوس بهم ويتسلط بواسطتهم على المساجد والزوايا والكتاتيب باعتبارها تجربة أولية ستعمم لاحقًا.

- في 17 ماي سنة 1851 صدرت من محاكم الجزائر دوريات في صيغة قرارات تنص على التنظيم التشريعي والإداري والبيداغوجي للمؤسسات التربوية والدينية.

- 24 جويلية 1852 قرار يسمح للقديس يون وإخوته Les Frères Saint-Youn بإنشاء المدارس المسيحية عبر كافة القطر الجزائري وتكوين المعلمين الجزائريين كبداية لنشر المسيحية والتبشير بها.

وكرر فعل من الهيئات والجمعيات الجزائرية ضد القرارات التي عملت على تهميش اللغة العربية تم تشييد المدرسة الأولى في المدية والثانية في البليدة وفي سنة 1855 أنشئت أخرى في الجزائر ثم بعد ذلك في قسنطينة وتلمسان، وفي سنة 1858 صدر قرار بتشبيد ثلاث مدارس لتعليم اللغة العربية في كل من الجزائر، قسنطينة وتلمسان بفضل جهود جمعية العلماء المسلمين. (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م،

ومنه فإن الحركة التعليمية في هذه الفترة عموماً أخذت صيغة -دينية- وكانت فرنسا بكل مجهوداتها تعمل على تغريب الجزائر عن ثقافتها بنشر مؤسسات تربوية تقوم بدور تنصيري وتغريبي، وفي هذه المرحلة توسعت حركة التبشير المسيحي ومارست عملية الدمج بمناهج وطرق تربوية أعدت لهذا الغرض.

والتربية والتعليم هي إحدى الوسائل السياسية التي اعتمدها الاستعمار في خطته الاستيطانية ما بدأه بالنار حاول أن يكمله بالتربية والتعليم ولقد لقيت هذه الخطة قبولا لدى جماعات الإخوة المسيحية التي رأت فيها تنفيذا للواجب الديني. (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص 49).

ويجب الإشارة أيضا إلى أن التعليم الابتدائي في الجزائر لم يكن موحداً، بل كان على قسمين: أهلي فرنسي، وكان مديرو المدارس الأهلية فرنسيين وبرنامجها خاص موجه نحو التكوين المهني، أي تعليم يعد الجزائري ليكون عاملاً في المزارع الفرنسية ومساعداً للكولون باعتباره عمالة رخيصة. (أبو القاسم سعد الله: 2009، ص ص 391-392).

واشتهرت الزوايا في الأرياف ومنها: زاوية طولقة في الأربعينيات وزاوية الهامل منذ الستينيات، وزاوية قصر البخاري في السبعينيات، وزاوية أولاد الأكراد. (أبو القاسم سعد الله: 2009، ص 396).

قامت جمعية العلماء المسلمين بين 1930-1938 بحركة ونشاط نهضوي يمكن اعتباره معادياً للسياسة التربوية الاستعمارية وهذا ما قاله "ابن باديس":

"إننا نرى أن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثل ما تكونت به سائر الأمم وهي لا تزال حية ولهذه الأمة تاريخها اللامع كمثل سائر أمم الدنيا، وهي الأمة الجزائرية، ليست هي فرنسا، ولا تريد أن تصبح فرنسا ومن المستحيل أن تصبح هي فرنسا ولو جنسوها." (دروش فاطمة فضيلة: 2013، ص 53) وكانت للجمعية مدراس تؤدي وظيفتها بإشراف جزائري مع الاستناد العلمي على جامع الزيتونة - الكتب المدرسية مختلفة منها الجزائري المحض وفيها التونسي والمصري واللبناني، 1950-1951 دلت الإحصائيات أن جامعة الجزائر التي كانت تضم نحو 5000 طالب لم يكن من بينهم سوى 213 طالبا من أصل جزائري، وهذا التفاوت في كل مستويات التعليم ما دلت عليه الإحصائيات التالية: (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص 112).

- في التعليم الابتدائي: تضاعف عدد التلاميذ الفرنسيين عن أقرانهم الجزائريين بـ 4.5 مرة.
- في التعليم الإعدادي: تضاعف عدد التلاميذ الفرنسيين عن أقرانهم الجزائريين بـ 8 مرات.
- في المدارس المهنية: تضاعف عدد التلاميذ الفرنسيين عن أقرانهم الجزائريين بمعدل 17 مرة.

- في التعليم الثانوي: تضاعف عدد التلاميذ الفرنسيين عن أقرانهم الجزائريين بـ 36 مرة.
- في التعليم الجامعي: تضاعف عدد التلاميذ الفرنسيين عن أقرانهم الجزائريين بـ 192 مرة.
- إن رفض المجتمع الجزائري للجهاز التعليمي الاستدماري قد تم التعبير عنه بأشكال وصيغ متعددة وبمواقف أدركت أن هذا الرفض لا يعني رفض الثقافة الفرنسية، كثقافة إنسانية وكسائر الثقافات الإنسانية الأخرى التي تتفاعل بها الأمم حضاريا، بل كان هناك إدراك للمقاصد الواضحة للنظام الاستدماري وإيديولوجيته الهادفة إلى السيطرة والاستغلال". (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص114)
- قال "عبد الحميد بن باديس" "إذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم ولن يصلح العلماء، إلا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره..." (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص122).
- لم تنس جمعية العلماء المسلمين الاهتمام بالمنهج التعليمي وبرامجه، من حيث تجنبها الأسلوب الجامد الذي يلقن ولا يحرك العقل والتفكير والابتكار. أيضا سعيها لتوحيد مناهج التعليم العربي. (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص132)
- كما صدرت جملة من القرارات منها: قرار مؤرخ في 27 نوفمبر 1944، وقرار مكمل في 05 مارس 1949، وكانت تهدف في مجملها إلى: (صحيبي حسان: 1426هـ-2005م، ص 141، 149)
- أ- ربط التنظيم الإداري والبيداغوجي وساعات الدوام والعطل في المدارس الجزائرية بنفس التنظيم المعمول به في فرنسا.
- ب- إعادة النظر في مناهج التاريخ والجغرافيا بما يخدم السياسة الاستدمارية.
- ج- التركيز على برنامج "المحادثة" بالنظر إليها على أنها أنجع وسيلة لتفريغ المتعلم من ثقافته القومية، وإحلال محلها ثقافة غربية، واعتمد في ذلك أسلوب تربوي "بيداغوجي" سريع التأثير لأنه يعتمد على سرعة المحو، وذلك من خلال المحاور، أو التحدث المباشر مع المتعلم، وبهذه العملية تقاس درجة التأثير عليه، كما كانت تزود المعلم بتغذية راجعة تجعله يعيد النظر في أساليبه البيداغوجية بسرعة.
- د- كانت معظم المدارس التي تحظى بسياسة الدمج لا تخلو محتوياتها وبرامجها من مادة التربية الفلاحية أو "خدمة الأرض".
- هـ- كان يعتمد في سرد الأحداث التاريخية في المدارس الابتدائية على الدروس المتوازية، فقد كان الكتاب المدرسي المعنون "التاريخ الفرنسي الجزائري" يتضمن درسا عن تاريخ فرنسا يتبعه درس عن تاريخ الجزائر الذي يهدف إلى ربط الجزائر بفرنسا وإشعار التلميذ بعدم تجزئة الجزائر عن فرنسا في ذهنه.